

قصيدة للتشريح

شفيق حبيب في عامه السبعين

الناقد / نور عامر

كنتُ في وقتٍ مضى قد تناولتُ بإعجاب بعضَ نتاج الشاعر المبدع شفيق حبيب، وها أنا ألتقي معه مجدِّداً في قصيدة جديدة عنوانها : " على شاطئ السبعين " نشرها بمناسبة بلوغه العقد السابع.

يسعدنا أن تمتدَّ به الأيام حتى يرى ما تمناه في قصيدته :

أَسْأَلُ عَمْرِي هَلْ سَيَمْتَدُّ كِي أَرَى

زَغَارِيْدَ أَرْضِي فِي خَوَاءِ الْخُرَائِبِ؟

سته وعشرون بيتاً من البحر الطويل، قصيدة موزونة تماماً يمتاز مطلعها بما يُسمَّى التصريع المستحسن في الشعر العمودي، دأبنا على قراءته عند الشعراء الكبار :

على شاطئ السَّبعينَ حَطَّتْ مراكبي

وناءتْ بأعباءِ الرِّزايا مناكبي

استهلالاً رائع يليه موقفٌ أروعٌ في التعبير عن الصمود وحبّ الوطن :

مَخَرْتُ عِبَابَ اللَّيْلِ وَالْوَيْلِ شَاعِراً
وَلَمْ يَثْنِنِي قَهْرٌ وَأَحْقَادُ غَاصِبٍ
أَحَبُّ فِلَسْطِينِي وَأَهْلِي وَأَرْضَهَا
إِذَا مَسَّ ضَرْرٌ، تَنَادَتِ كِتَابِي

يتابع شاعرنا، ولعلّ في ذهنه قول محمود درويش: "وطني ليس حقيبة، وأنا لست مسافر".

وتتري عقوداً والليالي ثقيلاً
وما زال شعبي نازلاً في الحقائق

هذا البيت لشفيق حبيب يعاني من الضعف بالقياس عمّا سبقه من أبيات قوية ثائرة. وكذلك البيت السابع :

أَرَادُوكَ سَقَاءً وَطِفْلَكَ حَاطِبَا
وَأَصْبَحْتَ فَأَرَا عَنْدَهُمُ لِلتَّجَارِبِ

لو افترضنا أن هذا البيت مدمكٌ لتصدّع وأضرّ بكل البناء. لم أفاجأ بصدر البيت، ولم استسغ أصبحت فأراً !

وأين هذا البيت من البيت الحادي عشر والذي اعتبره البيت
المحور بالنسبة للموضوع الأساس.

تَمْرُبِي الأَيامُ والعُمْرُ نازِفٌ
وما زلتُ في السَّبعينَ غَضَّ الرِّغائبِ

يتجلى حبُّ الشاعر للحياة وتمجيذه لها، ثم شعوره بالشباب
والعنفوان. ولعل هذا الإحساس هو ما فجَّر قريحته لفتح صفحة
المرأة التي تحظى عنده بمكانة كبيرة.

عيونُ الغواني كم يُعذِّبنَ خافقي
ويصرعنني عمداً صَدُودُ الكواعِبِ

صورةٌ شعريةٌ مثيرة، الرغبة والصد، الاندفاع والإخفاق،
التناقض في التشكيل وفي ملامح الزمن : الامتداد النضوج
والكم (الشاعر)، والزهور البكر (الكواعب) مفرد : الجارية
نهد ثدياها.

ويستهويه هذا العشق حتى نراه يتعالى على سليمان في " نشيد
الإنشاد " ويتعالى على قيس !

نشيدُ سليمانِ صدىً في محابري
وأطار قيسَ قطرةً في سحابي

ويزداد حماسه فلا يترك في الحي حسناء، يعشق بالجملة !!

عشقت حسان الحي عشقاً مُراوِغاً

وقاتلت حتى قيل: خير مُحارب

ولا يرى غضاضة في الخلط بين العشق الصوفي، وعشق المرأة، خاصة الفتاة اللعوب.

تغنيتُ بالعشق الإلهي مُدُنفاً

وعدتُ قتيلاً في سيوفِ اللواعب

هذه المفارقة تحتاج إلى التفكر لتفسير ما قصده الشاعر. الصواب في نظري أن ندع المسألة مفتوحة.. وأن نلتفت إلى براعة الشاعر في التمهيد قبل دخوله عالم الأنثى؛ ربما ليحصن نفسه من الظنون...

واني جميلُ النفسِ حُرٌّ، عفيفها

ولكنها تزدادُ شهداً تجاربي

من خلال معرفتنا به نقرّ له بهذه الصفة النبيلة، ولا تفوتنا الإشارة أنه شاعر من أجل قضية يجسدها بموهبته المشبعة بالتجربة والمعرفة:

أنا شاعر تغذوه أمالُ أمةٍ
وآلامُها، والحرفُ ثمرُ المواهبِ
زرعتُ على التاريخِ راياتِ نصرِها
ونكسَتها حين استبيحتُ ملاعبي

نلحظ بوضوح الفجوة الواسعة بين صدر البيت الثاني وعجزه.
مصرعان متنافران بحدة !.. ليته جعل عجز البيت موازيا
لصدره فخراً وشموخاً، كما فعل النابغة الجعدي مفتخراً بقومه:

بلغنا السماءَ مجدنا وجدودنا
وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وبخصوص القافية فإن الشاعر يتحكم بها في معظم قصيدته،
لكن بعض القوافي تخرج عن طوعه، بمعنى إنها تثبت من أجل
القافية ليس إلا. كقوله على سبيل المثال:

على جبهة الأيامِ تعلو قصائدي
وتبقى شهودُ العصرِ، عصرِ النواكبِ

يُعرف بدون شك إن الصحيح لغوياً (نكبات) جمع نكبة، وليس
النواكب. لكنه اضطر لوضعها كي تستقيم القافية.

إن لشفيق حبيب صولاتٍ كثيرةً في شعر التفعيلة، لكنه في الحقيقة مولعٌ بالشعر القديم، ومن نتائج هذا الولع أنه في قصيدته هذه تنازل قليلاً عن لغة العصر في وصفه الأخطار التي تحيق بأمّتنا في ظل الهيمنة والمكر وسطوة السلاح، كقوله :

(شفار المخالب.. ظلال الثعالب.. طعامُ النواعب).

ومع ذلك تبقى هذه الألفاظ القديمة محبّبة إلى نفوسنا من منطلق عشقتنا للغتنا العربية.

لعلّ دافعي الأول في نقد هذه القصيدة أن شاعرنا الكريم صادقُ الشعور صريحُ العبارة، لدرجة أنك لا تجد في قصيدته فقرةً واحدةً ملتويةً أو مخادعة، لذلك نقرأ هذا النص المميز بكثير من التفاعل والتقدير.

صحيفة "كل العرب" النصاروية

٢٠١١-٢-١٨

صحيفة "الحقيقة" المحلية

٢٠١١-٢-٢٥